

شهرزاد، وهي مغرقة في نومها الهادئ كأنها لم تقص عليه شيئاً ولم تتحدث إليه بشيء، وكان يذكر أيامه تلك السود حين كانت امرأته تلك تخذعه عن نفسه وعن حبه وعن شرفه وتزدرية فيما بينها وبين نفسها أشد الازدراء، تستعين على ذلك بوصائفها وجواربها، غير حافلة بما أعطت على نفسها من عهد، ولا أبهة لجلال الملك ولا مقدرة لعواقب الخيانة والغدر، وكان يذكر مرارة الانتقام وحلاوته، ونار الغيرة تلك التي كانت تتأجج في صدره فتحرق قلبه تحريقاً، وكانت مع ذلك برداً وسلاماً على نفسه الجريحة الثائرة.

ثم كان يذكر تلك الأيام السود التي أنفقها بعد مصرع نساء القصر نهباً مقسماً بين لذة الحب وشهوة الانتقام، يُقبل على اللهو بقلب يظهر الفرح والمرح والابتهاج والغبطة، وفي ضميره الغيظ والحق والبغض الذي لا يطفئ جذوته إلا الدم المسفوك. أكانت أياماً يشرق فيها ضوء النهار، أم كانت ليالي مظلمة لا يهتدي الضوء فيها إلى سبيل؟! أكان في تلك الأيام إنساناً يحس ويشعر ويفكر ويقدر، أم كان قوة مدمرة لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم؟!

ثم كان يذكر شهرزاد حين عرضها عليه أبوها الوزير وفي نفسه كثير من خوف وقليل من رجاء، وحين أقبلت إليه مع الليل تظهر حباً وثقة وتضمّر بغضاً وخوفاً، ومن وراء ما تظهر وما تضمّر حيلة واسعة وذكاء عجيب نفاذ.

ثم يذكر هذه الليالي المتتابة التي شغلته فيها شهرزاد بنفسها وقصصها عن الحب والبغض، وعن الغيرة والانتقام، وعن نفسه وملكه؛ حتى إذا انقضى القصص ورُدَّ إلى نفسه ملكاً كما كان في تلك الأيام السود، ردت إلى نفسه خواطرها الحمر وعواطفها الثائرة وشهواتها المضطربة المختلطة، ورُدَّ إليها قبل كل شيء هذا القلق المتصل الذي يفسد الحياة على الأحياء، ونظر فإذا هو بين نفسه هذه المضطربة القلقة الثائرة التي لا يستطيع أن يخلو إليها، وبين شهرزاد هذه المحبة المبعوضة الرحيمة القاسية الفاتنة المفتونة الواضحة الغامضة، التي لا يعرف لها كنّها ولا يطمئن منها إلى حال، وهو مقسّم بين هذين النوعين من العذاب، يخلو إلى نفسه فيشقيه القلق والخوف، ويخلو إلى زوجه فيشقيه الحب والشوق إلى المعرفة واليأس من إرضاء الحب ومن إرضاء الشوق إلى المعرفة. ثم يذكر تلك الليلة التي أذنه فيها طائفه ذاك بأن شهرزاد ستستأنف الطب لنفسه نائمة بعد أن كانت تطبُّ لها يقظة، وإذا هو يسمع من هذا القصص ما يسمع، فينعم بشهرزاد نائمة ويشقى بها مستيقظة.

وتشعر هي بذلك فتريد أن تطب له في الحالين، فتخلط يقظته بنومه وتجعله يحلم نائماً ويقظان. وإلا فأين هو الآن؟! أين هو من قصره ومدينة ملكه؟! أين هو من جنده